شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠١/٠٦ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد : فنسأل الله عز وجل العظيم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يكتب مجلسنا هذا فيما يرضيه عز وجل ، وأن يجعله لوجهه خالصا ، وأن ينفعنا به ، وأن يجعله حجةً لنا لا علينا ، وأن يزيدنا من فضله هدًى وتقًى وصلاحًا وعافية ، وأن يصلح لنا شأننا كله ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين .

ثم أيها الإخوة الكرام : هذا المجلس الأول في مجالس –نسأل الله عز وجل أن يبارك فيها– نقرأ فيها كتاباً مباركاً ومؤلَّفاً عظيماً في أعظم الأمور وأجلّها على الإطلاق؛ ألا وهو توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له .

والكتاب موضوع الدراسة في هذه المجالس: « كتاب التوحيد » للإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وجزاه الفردوس الأعلى ، وهو كتابٌ مبارك وفريدٌ في بابه ، بل لم يؤلَّف على منواله ونسْجِه وفي موضوعه مثلَه ، وهو كتابٌ أفرده رحمه الله تعالى لبيان التوحيد الذي هو حق الله سبحانه وتعالى على العبيد ، ونَهَج في تأليفه نهج أهل السنة وسلَك مسلكهم ، وهو كتابٌ قائمٌ على « قال الله قال رسوله صلوات الله وسلامه عليه» ، فليس فيه شيء إلا وهو قائم على الدليل كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا قرأت كتابه التوحيد وقرأت كتب أئمة السلف المؤلفة في الإيمان أو في أصول الديانة أو في الاعتقاد أو في التوحيد تجد أنها على نسَقٍ واحد ونهجٍ واحد وطريقةٍ واحدة ؛ فهم وإن تباعدت بهم الأزمان وتباعدت الأوطان واختلفت الألسن نهجهم واحد ، لأنهم ينهلون من معينٍ واحد ويصدرون عن موردٍ واحد؛ وهو كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فقولهم جميعاً متفِقٌ ليس مختلف ، لأنه مستمدٌ من وحي الله ؛ كلامه وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، بخلاف العقائد الأخرى فإنها مضطربة ومختلفة ومتناقضة لأنها مبنية على العقول والآراء وفهوم الناس وأذواقهم ، والله جل وعلا يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

وقد وفَّق الله سبحانه وتعالى الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لجَمْع هذا المصنف وتأليف هذا الكتاب، وجعل الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب بركةً عظيمة ونفعاً كبيراً ؛ فهدى الله به خلقاً لا يحصيهم إلا الله إلى التوحيد والإخلاص والبُعد عن الشرك صغيره وكبيره دقيقه وجليله بما أكرم الله سبحانه وتعالى هذا الإمام من حُسن بيان وحُسن استدلالٍ وحُسن تبويبٍ وترتيبٍ وجمع ؛ ولهذا عظمت عناية أهل العلم وطلابه بهذا الكتاب؛ حفظاً

ومدارسة، وكثرت مصنفات أهل العلم حول هذا الكتاب ، بدءً بما كتبه حفيده سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في مصنفه الحافل وكتابه الجامع «تيسير العزيز الحميد» ، مروراً بتهذيب واختصار وتتميم أيضاً حفيد الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه «فتح المجيد» ، ثم فيما بعد توالت الكتب وتعددت المؤلفات شرحاً وإيضاحاً وبياناً لهذا الكتاب العظيم المبارك «كتاب التوحيد» .

وأقول أيها الإخوة الكرام : والله ثم والله ثم والله ؛ إنها نعمة من أكبر النعم أن يوفَّق المسلم لقراءة هذا الكتاب ، والله إنها نعمة عظيمة أن يوفق لقراءة هذا الكتاب ، وأن يجلس لفهمه ومدارسته ، لأنه كتابٌ أُخلص لأجلِّ الأمور وأعظم المقاصد وأنبل الأهداف ، أُخلِص لبيان التوحيد الذي خُلقنا لأجله وأوجدنا لتحقيقه ، أخلص لبيان أمرٍ ضل فيه كثير من الناس ، حتى منهم من ينتسب إلى الإسلام وينتسب إلى الدين! في ضياعٍ لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى ، وذلك بسبب التفريط في دراسة التوحيد ، والتفريط في دراسة الاعتقاد الذي هو الأساس الذي يُبنى عليه الدين وتقام عليه الملة ، والإخلال به إخلالٌ بالدين كله كما قال الله سبحانه تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة:٥]، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٧].

ولئن كان خصوم هذه الدعوة المباركة حاولوا بشتى الوسائل أن يحجبوا عن الناس هذا الضياء وأن يحُولوا بينهم وبين هذا النور؛ إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى يأبى إلا أن يتم نوره ، ولهذا لا يزال هذا الخير وهذه الدعوة المباركة تؤتي أُكُلها كل حينٍ بإذن ربها ، ولا يزال الناس يقبِلون على هذا الخير ويقبِلون على هذا النفع العظيم مع كثرة الدعايات المغرِضة ضد دعوته رحمه الله تعالى المباركة . ومن أكرمه الله عز وجل بزوال غبش هذه الدعايات عن وجهه رأى الحقيقة جليَّة ، ورأى الحق ساطعاً ظاهراً بيِّنا ، بخلاف من أسلم نفسه للمغرضين وأهل الضلال والباطل وأصغى لأكاذيبهم وترويجاتهم الزائفة الباطلة .

واسمعوا –رعاكم الله– هذه القصة ففيها عظة وعبرة ، وقد ذكرها الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى مفتي هذه الديار كما في مجموع فتاواه ؛ عن رجل فاضل يقال له : عبد الرحمن البكري ، وقد أكرمه الله عز وجل بدارسة التوحيد وفهمه ، وكان عنده تجارة فيحتاج من أجل تجارته أن يذهب إلى الهند ويقيم بها الشهور العديدة ، فكان إلى جوار المكان الذي يسكن فيه أحد العلماء هناك يدرِّس الطلاب ويجتمع حوله الطلاب وكان يبدأ كل درسٍ من دروسه ويفتتحه بلعن ابن عبد الوهاب . ثم إن هذا الرجل عبد الرحمن البكري أراد أن يوقف هذا الرجل على الحقيقة بعيداً عن الدعايات التي وصلت إليه ؛ فجاء إلى هذا الكتاب « كتاب التوحيد » ونزع الغلاف

الذي يتضح منه اسم المؤلف ، فمر به ذلك العالم فدعاه ورحَّب به وضيَّفه وأكرمه وترك الكتاب في مجلس قريباً من المكان الذي أجلسه فيه ثم غاب عنه ليُحضر شيئاً ، ورجع إليه والكتاب بيد ذلك العالم يقرأ ، وإذا ليس أمامه إلا آيات وأحاديث وتبويبات عظيمة ونفَس مبارك في توضيح التوحيد وبيان الحق والهدى !! رأى شيئاً واضحاً ظاهراً ، رأى نوراً ، فأُعجب بالكتاب ؛ فلما رجع إليه عبد الرحمن قال : لمن هذا الكتاب ؟ -فما أحب أن يخبره بما صنع – قال له : لعلنا نذهب إلى فلان الكُتُبي -صاحب مكتبة- نعرض عليه الكتاب لعله يفيدنا من هو صاحبه ؟ فذهبا معاً إليه ، فنظر إلى الكتاب وجاء بمجموعة التوحيد وقال : هذا الكتاب لمحمد بن عبد الوهاب ، قال هذا العالم : الكافر ؟! ، ثم أعاد النظر مرة ثانية وتنبَّه أن اللعن الذي كان يفعله وكذلك التكفير -والعياذ بالله- الذي يقوله في حق هذا الإمام كله مبني على دعايات ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان ، فتحوَّل من تلك القصة التي رأى فيها النور والضياء لا يفتتح درساً من دروسه إلا بالدعاء للشيخ رحمه الله ؛ هذه واحدة .

والثانية -وهي أيضاً عجيبة- حصلت لي أنا شخصياً في إحدى الدول ؛ ألتقيتُ رجلاً ودار بيني وبينه حوارٌ يطول شرحه لكنه قال لي : إن محمد بن عبد الوهاب يكره آل البيت ويسب آل البيت و..و..إلخ ، قلتُ له : كتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أكثرها قد قرأتها كتاباً كتاباً ولم أرَ في كتابٍ واحد شيئاً من هذا الذي تقول ؛ فهل تسمي لي كتاباً واحداً معيَّناً فيه هذا الذي تقول ؟ قال لي : يعني ما في ؟ قلت : أنت تجزم الآن جزم بأن الشيخ كيت وكيت وكيت والآن تسألني !! قلت : يا أخي يجب أن تتقي الله ، قبل أن تتكلم انظر في حقيقة الأمر ولا تنساق مع هذه الدعيات الكاذبة المغرضة ، والله ستقف أمام الله عز وجل خصماً لهذا الإمام وأنت تتكلم فيه بغير علم ؛ تكلمتُ معه طويلاً ومن ضمن ما قلت له : كم أولادك وما أسماء أولادك؟ وهو يتعجب من سؤالي ، قلت له : الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أتعرف من هم أولاده وما هي أسماؤهم؛ وقد قلت فيه ما قلت ؟ أولاده : علي ، وله بنت واحده اسمها فاطمة ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وإبراهيم ؛ وهؤلاء كلهم آل البيت ، وعبد العزيز هذا الاسم الذي عبَّده لاسم الله العزيز ، وبقية أولاده وبنت واحده كلهم بأسماء آل البيت. تعجب الرجل من هذه الحقيقة التي عمِي عنها بتلك الدعايات الكاذبة .

ومثل هذا كثير جداً ؛ حجَبَت الدعايات الكاذبة المغرضة الحقيقة وحالت بين العوام وبين شهودها ، والسبب في ذلك أئمة الضلال ودعاة الباطل ،كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ مِنْ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّين)) ؛ والسبب : أنهم يحجبون عن الناس الحقيقة .

هذا الكتاب الذي بين أيدينا « كتاب التوحيد » كتابٌ قائمٌ على قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم ،حتى إنه من عجيب صنيع المصنف – بل من بديع تصنيفه رحمه الله لهذا الكتاب – أنه دخل في الآيات مباشرة دون أن يكتب مقدمة كما هي العادة للمصنفين والمؤلفين ، أليست عادة من يصنف كتاباً أن يبدأ بمقدمة يذكر فيها أهمية الكتاب وموضوع الكتاب وسبب تأليف الكتاب وأمور أخرى طويلة تُذكر في كثير من المصنفات ؟ الشيخ

رحمه الله تعالى بدأ الكتاب بقوله : ((بسم الله الرحمن الرحيم كتاب التوحيد وقول الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦])) ؛ مباشرة دخل في الآيات ، وكأنه يوصل بذلك رسالة إلى كل من يقرأ كتابه أن الإيمان والتوحيد والدين يُبنى على قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم . فجعل الآية والآيات التي تتبعها أقامها مقام الخطبة التي يصدَّر فيها الكتاب ويبيَّن من خلالها الغرض من تأليفه ، وفعلاً إذا فتحت الكتاب «كتاب التوحيد » وقرأت الآيات التي صدَّر بها الكتاب تغنيك عن خطبة يُشرَح لك فيها مقصود الكتاب والمراد منه ، إذ من خلالها تهديك إلى مراد الكتاب والغرض منه ؛ فاستغنى بها رحمه الله –وهذا من دقة علمه– عن خطبةٍ يمهِّد بها لكتابه ويذكر فيها سبب تصنيفه له .

فنسأل الله عز وجل أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء على كتابه هذا وكتبه كلها وجُهده وجهاده ، وأن يُعلي درجته في الفردوس الأعلى ، وأن ينفعنا جميعاً بما حواه هذا الكتاب من علمٍ عظيم وتقريرٍ نافع وجمعٍ مبارك في أهم الأمور وأعظمها ؛ ألا وهو التوحيد الذي هو حق الله سبحانه وتعالى على العبيد .

وقد جعل رحمه الله عنوان كتابه هذا : « **التوحيد الذي هو حق الله على العبيد** » ؛ والتوحيد : مصدر للفعل وحَّد يوحِّد توحيداً ، وهو أصلٌ يدل على الإفراد . وتوحيد الله عز وجل : هو إفراده سبحانه وتعالى بخصائصه وحقوقه عز وجل ؛ إفراده بخصائصه : كالخلق والرَّزق والإنعام والتصرف والملك والتدبير وغير ذلكم من أفعاله سبحانه وتعالى ، وأيضاً إفراده بأسمائه الحسنى وصفاته العليا والإيمان بها كما وردت وإمرارها كما جاءت بلا تحريفٍ ولا تعطيل وبلا تكييفٍ ولا تمثيل ، وبإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاص الدين له ؛ ولهذا قال أهل العلم : التوحيد ثلاثة أقسام : توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء الصفات ، وتوحيد الألوهية .

- أما توحيد الربوبية : فهو توحيد الله عز وجل بالخلق والرَزق والملك والتدبير وغير ذلكم من أفعاله جل وعلا .
- وأما توحيد الأسماء والصفات : فبإثباتها والإيمان بها في ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .
- وأما توحيد الألوهية : فبإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاص الدين له .

ولما كان توحيد العبادة هو موضع الخصومة وبين الأنبياء وأقوامهم كتب رحمه الله كتابه هذا في هذا التوحيد خاصة «توحيد العبادة» ؛ لأنه موضع الخلل لدى كثير من الناس في قديم الزمان وحديثه ، مع أيضا تعريجٍ على النوعين الآخرين بحسب ما يقتضيه المقام في تبويبات هذا الكتاب المبارك ؛ ولهذا فإنَّ هذا الكتاب أُفرد لبيان التوحيد وذِكر دلائله وشواهده وبراهينه ، وأيضاً التحذير مما يضاد التوحيد من أصله أو يضاد كماله الواجب ؛ لأن التوحيد له نواقض وله نواقص ؛ له نواقض إن وجدت أذهبت به من أصله ، وله نواقص إن وجدت أذهبت

بكماله الواجب، وفي هذا الكتاب بيَّن ذلك رحمه الله ، فذكر ما ينتقض به التوحيد وذكر أيضاً نواقص التوحيد محذِّراً من ذلك كله ؛ صيانةً للتوحيد وتحقيقاً له وتتميماً وتكميلا .

وقوله رحمه الله في العنوان: « **الذي هو حق الله على العبيد** » ؛ أخذ ذلك من حديث معاذ رضي الله عنه الذي أورده في الباب الأول –كما سيأتي معنا في هذا الكتاب– قال : ((أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟)) ، فالتوحيد حق الله على العباد ؛ لأجله خلقهم ، ولأجله أرسل الرسل وأنزل الكتب ، ولأجله انقسم الناس إلى فريقين : فريقٌ حققوا التوحيد وقاموا به ففازوا برضا الله سبحانه وتعالى وثوابه ، وآخرون نقضوا هذا التوحيد فخسروا الخسران المبين .

ونشرع في قراءة هذا الكتاب المبارك ، ومن الله سبحانه وتعالى نستمد العون ونستمنح التوفيق .

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رحمه الله رحمة واسعة في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد »:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب التوحيد وقول الله تعالى: {مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} .

****

بدأ رحمه الله تعالى كتابه المبارك بالبسملة ((**بسم الله الرحمن الرحيم**)) تأسياً بكتاب الله جل وعلا وتأسياً بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في مكاتباته ومراسلاته . والبسملة استعانة بالله وتيمُّنٌ وتبركٌ بذكر اسمه، وطلبٌ لمدِّه وعونه سبحانه وتعالى وتوفيقه ؛ ولهذا يستحب أن يُبدأ بها وأن تستهل بها الأمور . فإذا أكل المسلم يبسمل ، وإذا دخل بيته يبسمل ، وإذا خرج يبسمل ، وإذا قرأ يبسمل ، وإذا كتب أيضا يبسمل ، وهكذا ..

والباء في «**بسم الله**» للاستعانة . ومعنى «**بسم الله**» هنا :أي بسم الله أكتب . إذ إنَّ للجار والمجرور في «**بسم الله**» محذوف مقدَّر يُعلم من حال المبسمِل ؛ فإن كان كتابةً فالمعنى : بسم الله أكتب ، وإن كان قراءةً فالمعنى : بسم الله أقرأ ، وإن كان دخولاً فالمعنى : بسم الله أدخل ، وهكذا .

((**بسم الله الرحمن الرحيم**)) ؛ وجُمع في البسملة ثلاثة أسماء حسنى لله تبارك وتعالى ؛ أما «الله» فهو كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما في بيان معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، أي أن هذا الاسم يدل على الألوهية التي هي وصف الرب التي هي أوصاف الجلال والكمال والعظمة التي استحق بها سبحانه وتعالى أن يُؤلَه وأن يُخضع له ويُذل ، وتدل على العبودية التي هي العمل الذي يقتضيه إيمان العبد بألوهية الله من ذلٍ وخضوعٍ وانكسارٍ وطاعةٍ لله سبحانه وتعالى . وإلى هذا الاسم ترجع جميع الأسماء ، وهذا واضح من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لهذا الاسم قال : «ذو الألوهية والعبوديه على خلقه أجمعين» ؛ ذو الألوهية عرفنا معناه أي

الذي له أوصاف الكمال والجلال والعظمة التي استحق بها أن يُؤله وأن يُعبَد ، فدخلت الأسماء والصفات كلها تحت هذا المعنى . وذو العبودية : أي ما يقتضيه الإيمان بهذا الاسم من عبوديةٍ وطاعةٍ وذلٍ وخضوع وانكسار .

و«**الرحمن الرحيم**» اسمان لله عز وجل دالان على ثبوت الرحمة . وقيل في الفرق بينهما : أن «الرحمن» دلالته على ما قام بالله عز وجل من هذا الوصف الذي هو الرحمة ، و«الرحيم» دالٌ على تعلق هذا الوصف بالمرحوم ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٣] ، وقيل غير ذلك ؛ فهما اسمان دالان على ثبوت الرحمة لله سبحانه وتعالى ؛ الرحمة العامة التي وسعت كل شيء ، والرحمة الخاصة التي خصَّ بها عباده المؤمنين وأولياؤه المتقين .

ثم قال رحمه الله : ((**الحمد لله وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلَّم**)) ؛ وهذا الحمد والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت في نسخ معتمدة من كتاب التوحيد كما بيَّن ذلك حفيد المصنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى في كتابه «فتح المجيد» ، فهذا الحمد والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت ويقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن أنه وقف عليه في نسخة معتمدة بخط الشيخ رحمه الله ، فلا يؤثر عدم وجوده في بعض النسخ أوفي بعض الطبعات ؛ إذ هو ثابتٌ بخط المصنف رحمه الله تعالى في نسخ معتمدة لهذا الكتاب . وعلى فرض عدم وجود الحمد والثناء فالاكتفاء بالبسملة سائغ ولا حرج في ذلك ؛ لكن الشيخ رحمه الله صدَّر الكتاب بالبسملة ، وحمد الله سبحانه وتعالى ، والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم .

والحمد : هو الثناء مع الحب ، حمد الله عز وجل هو الثناء على الله مع حبه جل وعلا ؛ لأن الحمد إذا عري من الحب يسمى مدحاً ، فحمد الله هو الثناء عليه مع حبه وإجلاله وتعظيمه سبحانه ، والله يُحمَد على أسمائه وصفاته ، ويُحمد جل وعلا على نعمه وآلائه وأفضاله .

والصلاة على الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ثناء الله عليه في الملأ الأعلى ، وقد قال الله في القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦] صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله رحمه الله : ((**كتاب التوحيد**)) ؛ كتاب : مصدر بمعنى مكتوب ، وأصل هذا اللفظ من الجمع ، ولهذا يقال: تكتَّب الناس أي: تجمَّعوا ، والكتيبة : الجماعة من الناس . ف«كتاب» : مصدر بمعنى مكتوب . فقوله : ((**كتاب التوحيد**)) أي هذا مكتوبٌ جامع في أمور التوحيد وفيما يتعلق بالتوحيد .

والتوحيد كما عرفنا مصدر للفعل وحَّد يوحِّد توحيداً ، وهو دالٌ على الإفراد . وتوحيد الله عز وجل: أي إفراده سبحانه بخصائصه وحقوقه جل وعلا .

قال: ((**كتابُ التوحيدِ وقولِ الله تعالى**)) ؛ بالخفض في «**قولِ**» معطوفاً على «**التوحيد**» ، ويجوز الرفع على الاستئناف «**وقولُ الله تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**» .

صدَّر بهذه الآية لبيان عظمة التوحيد وأهميته ومكانته العليا وأنه الغاية التي خُلق الخلق لأجلها وأُوجدوا لتحقيقها ، ولم يضع باباً -رحمه الله تعالى- لهذه الآيات كما سيأتي في الأبواب التي بعده ، وإنما دخل مباشرة دون أن يضع باباً كأن يقول : بابٌ في أهمية التوحيد ، أو بابٌ في مكانة التوحيد ، أو بابٌ في عظمة التوحيد أو نحو ذلك ، وإنما دخل مباشرةً في سرد هذه الآيات . ونحن نعلم أن الكتب تحتها أبواب ، لكنَّ ما صدَّر به رحمه الله تعالى كتاب التوحيد من آيات لم يضع باباً !! وذلك أن من يقرأ هذه الآيات التي أقامها رحمه الله تعالى كما قدَّمت مقام الخطبة للكتاب التي من خلالها يتضح مراده ، وكأنه -كما قدمت- يريد القارئ أن يقف على موضوع الكتاب ومضمون الكتاب وطريقة الكتاب من خلال الآيات التي يسوقها مباشرة . وهذا فعلاً ظاهر من صنيعه في انتقاء هذه الآيات العظيمة التي تبين مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية .

والآيات التي ساقها رحمه الله -كما سيأتي إيضاح ذلك في كلِّ موضع- جمعت بيان أهمية التوحيد ومكانته العظيمة من خلال :

- أولاً : بيان أنه الغاية التي خُلق الخلق لأجلها وأُوجدوا لتحقيقها ؛ كما في الآية الأولى .
- ومن خلال بيان أنه الأمر الذي لأجله أرسل الله عز وجل الرسل ولأجله بعثهم ؛ كما في الآية الثانية .
- ومن خلال بيان أنه أوجب الواجبات وأعظم الفرائض وأجلُّها على الإطلاق وأنه يُبدأ به ويُقدَّم على غيره ؛ كما في الآيات الثالثة والرابعة والخامسة .
- ومن خلال بيان أن ضده وهو الشرك أعظم النواهي وأخطر الآثام ؛ كما في الآية الخامسة .
- ومن خلال بيان أنه حق الله على العباد ؛ كما في حديث معاذ .

فجمعت هذه الآيات بيان مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية وأنه الغاية التي خُلق لأجلها الخلق ولأجلها أرسل الرسل، وأنه أوجب الواجبات وأعظم الفرائض ، وأن ضده وهو الشرك بالله أخطر الآثام وأعظم الظلم ، وأن التوحيد هو حق الله سبحانه وتعالى على العبيد ؛ وهذا كله مما يبين مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية . وهذا هو الغرض إجمالاً من سياق المصنف رحمه الله تعالى لهذه الآيات والتي بدأها بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

وهذه الآية الكريمة وهي في أواخر الذاريات فيها أن الغاية التي خلق الله عز وجل الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها هي عبادة الله وإخلاص الدين له ، فأخبر عز وجل أنه فعل الأول – الذي هو الخلق : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

﴿وَالْإِنسَ﴾ – ليفعلوا هم الثاني وهو العبادة كما قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، والأسلوب هنا أسلوب حصرٍ وقصر؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا﴾ لغاية واحدة ومقصد واحد وهو أن يعبدوا الله، لم يُخلقوا لشيء آخر، إنما خُلقوا ليقوموا بعبادة الله.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليوحِّدون، وكلُّ أمر بالعبادة في القرآن أمرٌ بالتوحيد، لأن العبادة بدون التوحيد لا يقبلها الله سبحانه وتعالى، كالشأن في الصلاة إذا كانت على غير طهارة؛ الصلاة بدون طهارة لا تُقبل، والعبادة بدون توحيد لا يقبلها الله وإن كثرت وتعدَّدت وتنوعت. قد مر معنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦]، فمن لم يخلص العبادة لله ما عبَد الله، لأن العبادة لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد؛ وعليه فإن قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليوحدوني بالعبادة، ليخلصوا العبادة لي. فمن لم يخلص العبادة لله سبحانه وتعالى لم يقم بالغاية التي خُلق لأجلها وأوجد لتحقيقها.

والمشركون الذين قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأصنام، بل يقولون في سبب عبادتهم للأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فهم كانوا يعبدون الله، ومع أنهم كانوا يعبدون الله ماذا قال الله عنهم في سورة الكافرون؟ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ مع أنهم كانوا يعبدون الله! لكن لما كانت عبادتهم لله سبحانه وتعالى ليست خالصة بل أشركوا مع الله غيره لم يكونوا في الحقيقة يعبدون الله؛ لأنه لا يُعبد الله إلا بالإخلاص، ولا يكون المرء عبداً لله إلا إذا أخلص الدين لله. أما الذي يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في العبادة أو في شيء من العبادة ليس عبداً لله.

فانتبه لهذه الفائدة والشيخ رحمه الله تعالى نبه عليها في المسائل؛ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ مع أن المشركين كانوا يعبدون الله مع الأشياء الأخرى التي كانوا يعبدونها، بل إن كلمة «شرك» التي هي صفتهم تدل على أنهم كانوا يعبدون الله مع الأشياء التي كانوا يعبدونها، لأن الشرك ما هو؟ التسوية؛ فسوَّوا غير الله بالله، ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المراد المشركين ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] سوَّوا بين الأصنام وبين الله في المحبة، محبة العبودية والذل والخضوع سوَّوا غير الله بالله فيها. فإذاً لا يكون العبد محققاً الغاية التي

خُلق لأجلها ووجد لتحقيقها إلا بالتوحيد ، فمعنى ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ : أي إلا ليوحدوني بالعبادة ، فيخلصوا الدين لله سبحانه وتعالى .

قال المصنف رحمه الله :

وقوله : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل:٣٦] .

****

هذه الآية ساقها رحمه الله تعالى لبيان أنَّ التوحيد الذي هو حق الله على العبيد هو الغاية من بعثت الرسل ، وأنَّ الرسل من أولهم إلى آخرهم دعوتهم واحدة إلى توحيد لله وإخلاص الدين له ، وأول ما يبدأ به الأنبياء أقوامهم الدعوة إلى توحيد الله ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف:٥٩] ، أول كلمة تقرع سمع الأقوام من أنبياءهم هي هذه الكلمة ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

والتوحيد هو زبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتهم وصفْو دعوتهم ، ولهذه الآيات نظائر في القرآن؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥] ، وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ أي الرسل ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحقاف:٢١] ، فالرسل من أولهم إلى آخرهم بُعثوا لهذه الغاية وأُرسلوا لهذا المقصد ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

وقوله ﴿ وَلَقَدْ ﴾ فيه تأكيدان : باللام ، وقد .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ وهذا فيه قيام الحجة ببعثة المرسلين ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] ؛ فبَعَث الرسل تترا ووالى سبحانه وتعالى بين الرسل وبعث في كل أمة رسولاً لإقامة الحجة وإزالة المعذرة وإبانة السبيل ، وقد بلَّغ الرسل البلاغ المبين .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ ؛ لماذا؟ ما المقصد من ذلك؟ ما الغرض من ذلك ؟ ما الغاية من ذلك ؟ ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ؛ وهذا هو التوحيد : النفي والإثبات .

قوله تبارك وتعالى : ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هذا هو الغاية التي لأجلها أرسل الرسل ، وهو معنى «لا إله إلا الله» ، لأنه قوله : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ هو مدلول الإثبات في قوله: «إلا الله» ، وقوله : ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هو مدلول النفي في قوله: «لا إله» . فقوله : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هذا مدلول كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» . وقد مر معنا في الآية الكريمة قول الله سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ ﴾ هذا هو المفسَّر هنا بقوله ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، فهناك ذُكرت كلمة التوحيد بلفظها وهنا ذُكرت كلمة التوحيد بمعناها ، فـ «لا إله إلا الله» معناها: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

وقوله ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ : أي أخلصوا العبادة لله سبحانه وتعالى فأفردوه بها ، والعبادة لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد كما مر، وهذا يُنقل عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول : «كل أمر بالعبادة أمر بالتوحيد» .

وقوله ﴿اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أبلغ من قول "اتركوا عبادة الطاغوت" ، لأن «اجتنبوا» فيها قدر زائد على الترك ألا وهو : المباعدة والمبالغة في الابتعاد والحذر الشديد ؛ وهذا هو المطلوب من المسلم أن يبتعد غاية الابتعاد وأن يحذر غاية الحذر من عبادة الطاغوت . وتأمل هذا المعنى في دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] ؛ أي اجعلني في جانبٍ بعيد عن الأصنام وعن عبادتها ، وهذا هو الواجب على المسلم تجاه هذه الكبيرة التي هي أعظم الكبائر . والمعنى هذا أيضاً جاء في قوله عليه الصلاة والسلام : ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)) وصدَّرها بكبيرة الشرك بالله التي هي أعظم الكبائر وأشد الظلم وأكبر الجرائم على الإطلاق .

والطاغوت : مشتق من الطغيان ؛ وهو ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع . والسلف رحمهم الله في كتب التفسير لهم عبارات وألفاظ كثيرة في شرح معنى الطاغوت والمراد به ، لكنها كلها تجتمع في هذه الخلاصة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله ملخِّصاً فيها عبارات السلف في تفسير الطاغوت بقوله : «ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع» ؛ من الطغيان وهو تجاوز الحد.

ومن عُبِد من دون الله وهو راضٍ فهو طاغوت ، ومن عُبِد من دون الله وهو غير راضٍ كالأنبياء والملائكة والصالحين من عباد الله لا يضرهم ذلك ، والطاغوت هنا هو الشيطان لأنه هو الذي دعا الناس إلى عبادة هؤلاء فأطاعوه ، وأما الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله سبحانه وتعالى فلا يضرهم ذلك ، بل إنهم يبرؤون إلى الله

سبحانه وتعالى ويتبرؤون من ذلك ، وهذا لا يضرهم . والطاغوت هنا : الشيطان الذي دعاهم إلى عبادة غير الله سبحانه وتعالى فأطاعوه .

ثم واصل الشيخ رحمه الله تعالى في ذكر الآيات في بيان مكانة التوحيد وعظيم شأنه وجليل مقامه ونؤجل الكلام عليها إلى اللقاء القادم بإذن الله سبحانه وتعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صل وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .